تحليل الخطاب

المصادر المعرفية والأسس المنهجية

أ. د. خليفة بن الهادي الميساوي

المعهد العالي للغات بتونس/ جامعة الملك فيصل بالسعودية

mkhalifatn@yahoo.fr

https://orcid.org/0000-0002-8738-1509

الملخّص

جاء هذا البحث لينخرط في الكشف عن المسار الإشكالي في تحليل الخطاب ويوضح أبرز جوانبه للقارئ العربي حتى يتمكن من دخول عالم الخطاب وتحليله وفق رؤية علمية وشروط نظرية ومنهجية تسهم في بلورة أفق واضح في تحليل الخطاب، وتخلصه من المتاهات التي انزلق فيها وأصبحت سمة بارزة في عناوين الدراسات التي تنسب نفسها إلى هذا المجال، وهي في نظري وحسب الأسس العلمية لهذا التخصص كما ضبطها محللو الخطاب، لا علاقة لها بهذا التخصص سوى عناوين توهم القارئ وتغالطه وتزيده غموضا وفوضى معرفية ومصطلحية. وفي هذا الإطار سعينا إلى ضبط رؤية مصطلحية من داخل تخصص تحليل الخطاب عسانا أن نفيد القارئ في فتح مسالك معرفية ومنهجية تهتم بهذا المجال المعرفي. فتوصلنا إلى فوارق دقيقة بين النص والخطاب ودراسات الخطاب وتحليل الخطاب، وبيّنا طبيعة المصادر المعرفية المتصلة بها وسبل التمييز بينها على أسس علمية ومنهجية، فمكننا ذلك من تحديد خصائص كل مجال وموضوع بحثه وطرق تحليله.

الكلمات المفاتيح: نص، خطاب، دراسات الخطاب، تحليل الخطاب، عالم الخطاب، مقاربة، منهج.

DISCOURSE ANALYSIS

Cognitive Sources and Methodological Foundations

Prof. Khalifa bin Hedi Missaoui
Higher Institute of Languages in Tunisia
King Faisal University/Kingdom of Saudi Arabia
mkhalifatn@yahoo.fr

https://orcid.org/0000-0002-8738-1509

ABSTRACT

This research reveals the problematic path in discourse analysis and clarifies its most prominent aspects to the Arabic reader so that he enters the world of discourse and analyzes it according to a scientific vision, theoretical and methodological conditions that contribute to set up a clear horizon in the analysis of discourse. Moreover, this vision rids him of the labyrinths in which he slipped and became a prominent feature in the titles of the studies that attribute to this field. In my opinion, according to the scientific foundations of this specialty as regulated by discourse analysts, the studies have nothing to do with it except for titles that lead to the delusion and fallacy of the reader and add to him ambiguity and chaos of knowledge and terminology. In this context, we sought to adjust a terminological vision from within the discipline of discourse analysis, to make the reader benefit from opening cognitive and methodological pathways concerned with this field of knowledge. We came out with subtle differences between text and discourse, discourse studies and discourse analysis. We clarified the nature of sources of knowledge related to them and ways to distinguish between them on scientific and methodological basis, which enabled us to determine the characteristics of each field, the subject of its research and the methods of its analysis.

Keywords: Text, Discourse, Discourse studies, Discourse analysis, World of Discourse, Approach, Method.

1. المقدمة

نشأ تحليل الخطاب في حقل معرفي في الفضاء البحثي الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين؛ منذ أن نشر زليغ هاريس مقاله الشهير بعنوان «تحليل الخطاب» سنة 1952، فكان له الأثر الكبير في تغيير مسارات الدراسات اللسانية التي لم تتجاوز حينها تحليل الجملة، ثم تحولت إلى الاهتمام بالخطاب وتحليل الخطاب، فكان هذا المسار ثمرة من ثمار هذا التحول في التوجه البحثي وإعادة النظر في مفهوم الخطاب وإجراءات التحليل ومستوياته التي أصبحت واضحة إلى حد ما في الدراسات الغربية، ومازالت متعثرة في الدراسات العربية، ولم تتضح فيها المسالك بعد؛ إذ لاحظنا خلطا عجيبا رهيبا فيما يصدر في الوطن العربي في شأن هذا الحقل المعرفي الذي أصبح يمثل خليطا من التخصصات، كل يدلي بدلوه فيه، أو يدعي الانتماء إليه، أو حتى الاختصاص فيه، والحال أنّ الأمر في الدراسات الغربية المؤسسة له ليس كذلك إلى حد ما، وفي هذا الإطار نهدف من خلال هذا البحث إلى تقديم رؤية نكشف فيها عن المصادر المعرفية المؤسسة لهذا المجال والضابطة لأسسه المنهجية؛ عسانا أن نسهم في توضيح بعض المغالطات التخصصية، أو نذلل بعض الصعوبات التي تواجه الدارس في هذا المجال بتتبع مسارات التخصص في مظانها الأولى، ومن ثمَّ إعادة توضيح مفهوم الخطاب وتحليل الخطاب كما قدمتهما الدراسات الغربية، وبيان أسباب هذا الخلط الذي يخترق الدراسات العربية.

برزت مصطلحات مثل: تحليل الخطاب، ولسانيات الكلام، ولسانيات اللغة في القرن العشرين، وقبل ذلك كانت الحقول المعرفية التي تعنى بدراسة النص منضوية تحت البلاغة والفيلولوجيا. لكنَّ عودة اللسانيات في النصف الثاني من القرن العشرين إلى الفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجيا وغيرها أدَّت إلى طرح أسئلة جوهرية تتعلق بتحديد التخصصات ومجالاتها ونقاط التقائها واختلافها. ومن أبرز هذه الأسئلة: ما النص؟، وما مجاله؟، وما الخطاب؟، وما مجاله؟، وما المكتوب؟، وما مجاله؟، وما الشفوي؟، وما مجاله؟، ثم ما آليات التحليل المعتمدة في كل هذه المجالات؟ ففي إطار تلك التساؤلات بدأت الحيرة تشق طريقها إلى المنشغلين بالنص والخطاب وتحليل الخطاب، ودفع هذا الغموض الباحثين إلى التمييز بين هذه المصطلحات ومجالات اهتمامها. فإلى أيّ حد استطاعت البحوث التي تسم نفسها بتحليل الخطاب أن تستجيب إلى هذا التمييز بين

الحقول المعرفية والمصطلحية؟، وإلى أيّ مدى استطاعت ضبط مصادرها المعرفية وأسسها المنهجية؟ سنجيب عن هذه الأسئلة وغيرها بتتبع مسارات تحليل الخطاب واتجاهاته في الدراسات الغربية والعربية؛ لنقف عند أهم ما توصلت إليه من نظريات ومقاربات وإجراءات منهجية تحليلية.

2. المصادر المعرفية

ظلَّ تحليل الخطاب منذ بدايته محلّ اختلاف حتى داخل المدرسة الفكرية الواحدة، مثلما حصل في المدرسة الفرنسية، حين اختلفت الرؤى والمسارات منذ الستينيات من القرن العشرين؛ حيث لم توجد عند ميشال فوكو Foucault الذي اهتم اهتماما كبيرا بالخطاب- علاقة بين الخطاب واللسانيات، أمَّا عند ميشال بيشو Pêcheux فإن تحليل الخطاب اندرج ضمن الفلسفة الماركسية والتحليل النفسي واللسانيات البنيوية، وهدف من هذه المكونات إلى تفكيك النصوص واستخراج أبعادها الإيديولوجية والنفسية التي تهتم باستعمال اللغة استعمالا حقيقيا محاطا بسياق إنتاجي يتولد فيه المعنى. واُعتبر تحليل الخطاب امتدادا للدراسات التي تهتم بعلاقة اللغة بالمجتمع، وهي علاقة تهتم بدراسة جميع أنواع النصوص باستعمال المناهج اللسانية قصد فهمها وربطها بسياقات إنتاجها الاجتماعية والتاريخية. وبذلك سادت هذه النظرة في الدراسات الفرنسية إبان الستينيات، لكنها بدأت تتغير شيئا فشيئا بعد ذلك متأثرة بالدراسات الأمريكية التي كانت أوضح في تحديد هذا المجال.

وهكذا كانت المدرسة الفرنسية تميز بين اتجاهين: اتجاه فلسفي أصبح يسمى فيما بعد «بنظرية الخطاب» المنبثقة عن الفلسفة بقيادة فوكو وبيشو، واتجاه لساني بقيادة باتريك شارودو وكربرات أوركيوني ودومينيك منغنو وغيرهم يهتم بتحليل الممارسات اللغوية داخل المجتمع بالاعتماد على المقاربات البراغماتية ونظريات التلفظ ولسانيات النص قصد معالجة مدونات مختلفة سياسية ودينية وإعلامية ومحادثية، وغيرها. وفي مقابل ذلك تنوعت مشارب مصادر تحليل الخطاب في المدرسة الأمريكية، مثل: الأنثروبولوجيا والاتنوميتودولوجيا واتنوغرافيا الاتصال وتحليل المحادثة، والاهتمام بما هو يومي طقوسي، كما فعل غوفمان Goffman.

من ذلك يتبيّن لنا أنّ المصادر مختلفة بين المدرستين؛ مما يؤدي حتما إلى تضارب

المفاهيم وصعوبة تحديد المجال. وكذلك يعود الاختلاف في تحديد مجال تحليل الخطاب إلى مفهوم الخطاب نفسه حسب المرجعيات الفكرية للدارسين سواء أ كانت فلسفية تتعلق بالنظريات أم بحوثا تجريبية تتعلق بكيفية اشتغال اللغة. وقد تبنى اللسانيون المسار الثاني؛ فالخطاب عندهم هو: استعمال اللغة، ويتحدد شكليا بكونه يتجاوز الكلمة أو مجموعة من الكلمات أو الجملة، ويرتبط بعملية الاتصال من الناحية الفكرية.

2.1. ما النص؟

تحدّد التعريفات القاموسية النص تحديدا تغلب عليه الجوانب الشكلية المكونة لمفهومه؛ ففي لسان العرب يرى ابن منظور أنّ النص هو: «الرفع والإظهار، وجعل بعض الشيء فوق بعضه، وبلوغ الشيء أقصاه ومنتهاه، والتحريك والتعيين على شيء ما، والتوقيف» (ابن منظور، 1994)، وعرّفت القواميس الغربية الفرنسية والانجليزية النص بأنّه: «مجموعة المصطلحات والجمل التي تشكل كتابة وعملا مكتوبا»[1]. وبطريقة أكثر وضوحا وتفصيلا يعرَّف النص بأنه: مجموعة من الشروط ضبطها القاموس الفرنسي على النحو التالي: «1. مجموعة تكوينية لكتابة ما. 2. عمل أدبي أو جزء منه. 3. الجزء المكتوب أو المطبوع من الصفحة (في مقابل الجزء الأبيض منها أو الهامش). 4. محتوى، صياغة دقيقة (نص قرار أو حكم، مثلا). 5. موضوع، نص امتحان[2]». وورد في القاموس الإنجليزي كولينز أنّ النص هو «1. كتاب أو الجزء الرئيسي منه، وليس المقدمة أو الصور أو الملاحظات. 2. النص هو أي مادة مكتوبة. 3. نص الخطاب أو البث أو التسجيل هو النسخة المكتوبة منه. 4. النص هو كتاب أو قطعة أخرى من الكتابة خاصة تلك التي ترتبط بالعلم والتعلم»[3]. ويتبيّن لنا من هذه التعريفات أنها تشترك في ربط مفهوم النص بالكتابة بصفة عامة، وقد أضاف

(1) انظر هذا التعريف في القاموس الفرنسي:

Dictionnaire de Français Larousse: https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/texte/77624

(2) انظر هذا التعريف في القاموس الفرنسي:

Dictionnaire Français Définition: définitions, exemples, synonymes et expressions.in https://dictionnaire.reverso.net/francais-definition/text%C3%A9

(3) انظر هذا التعريف في القاموس الإنجليزي:

Collins English Dictionary: https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/text

بعضها إلى هذا الشرط مصطلح الأدب؛ فضيق مفهوم النص وخصصه بالنص الأدبي أو العمل الأدبي أو جزء منه. أما الدراسات اللسانية التي اهتمت بمفهوم النص فقد ربطته بصفة عامة بالشروط الشكلية وبالقارئ؛ فالنص في تلك الدراسات عبارة عن سلسلة من الكلمات أو العبارات أو الجمل التي تجتمع في مقطع من العمل المكتوب بأشكال وصيغ مختلفة، بقطع النظر عن الحجم من حيث الطول والقصر، وبهدف نقل مجموعة من المعاني إلى القارئ.

وتختلف أشكال النصوص وموادها المكتوبة؛ إذ يمكن أن تكون كتبا ومجلات وصحفا ومحتوى في صفحات الانترنت ورسوما وإعلانات ولوحات فنية وغير ذلك من الرموز. وقد تطور مفهوم النص في آخر ستينيات القرن العشرين خاصة مع ظهور لسانيات النص في فرنسا وأروبا بشكل عام؛ فأعلن جاك دريدا (1967) عن أنّ «لا شيء يوجد خارج النص»، وصرح رولون بارت (1968) «بموت المؤلف»؛ فعوض بذلك المفهوم القديم الذي كان قائما على الكتابة والكاتب[1]. ثم بدأ مفهوم النص يتغير ويتوسع بعد ترجمة أعمال بارت ودريدا وغيرهما إلى الإنجليزية في أواسط السبعينيات ليشمل شروط تحقق «النصية»، وانفتح على الأبعاد الثقافية، وأصبح ينظر إليه في الدراسات النقدية على أنه جزء من الحياة الاجتماعية[2]. وهكذا يعني مصطلح نص «text» الذي اشتق من الفعل«texere» ومن الكلمة اللاتينية«textum»: ما هو مكتوب. ويرتبط أساسا بالكتب المقدسة أو بما يخطه العلماء من كتابات، ويلتصق بمفهوم النسيج «texture» ومفهوم البناء «construction». وهكذا ظل إلى القرن التاسع عشر، ثم أصبح في القرن العشرين يتحدد بمعايير الجودة الأدبية والجنس الأدبي؛ فيوسم بأنه نص حجاجي، أو وصفي، أو سردي، أو تفسيري، أو حواري، أو جدلي، إلخ. وبعد تطور النظريات اللسانية النصية والنقدية أضيفت إليه معايير أخرى، مثل: أهمية المتلقي والسياق الثقافي والفكري، بل ذهب بعضهم إلى وصفه بالشفوي والمكتوب في السنوات الأخيرة؛ مما جعل البعض يعرفه بالترادف مع الخطاب، وهو ما أحدث تداخلا بينهما أوحى للمشتغلين بتحليل النصوص الأدبية وغيرها من النصوص المكتوبة أنهم يحللون خطابات، ولكن الفرق بين النص

(1) انظر بحوثه التالية: (Barthes, 1968, p.p. 61–67), (Barthes, 1971, p.p. 69–77).

(2) انظر حول التحولات التي مر بها مفهوم النص في النصف الثاني من القرن العشرين: (Wilson, 2012, p.p. 341–358).

والخطاب[1] يكمن في عدة تفاصيل علينا توضيحها بتحديد مفهوم الخطاب ذاته؛ حتى نتجنب هذا الخلط، ونجلي هذا اللبس.

2.2. ما الخطاب؟

يرتبط الخطاب في المعاجم في معناه العام بأيّ كلام شفوي يخص موضوعا معينا يقدمه متكلم أمام جمهور في مناسبة رسمية أو غير رسمية، ويعرف لسانيا بأنه اللغة التي يستخدمها المتكلم في حالة فعلية، (أي الكلام بالمعنى السوسيري للكلمة)، وهو كل ملفوظ يتجاوز الجملة، ومن الناحية البنيوية استرسال لمتتالية من الجمل[2]. ويعرف كذلك بأنه التواصل المنطوق أو المكتوب الطبيعي بين الناس في السياق، وترادفه المصطلحات التالية: المحادثة، الحديث، المناقشة، الكلام.[3] ويعود مصطلح الخطاب وفق بعض اللسانيين إلى الأصول البلاغية القديمة؛ إذ يعني بشكل أساسي الإنتاج الشفوي (كريستال، 2008، ص.148). وأما عند العرب فقد ارتبط مفهوم الخطاب بالتخاطب، فهو: «مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان» (ابن منظور، مادة، خ. ط. ب، 1994، ص.361). ويحيلنا هذا التعريف على ما تقدمه اللسانيات اليوم من «أنّ الخطاب حوار متبادل بين شخصين على الأقل، فهو عملية تلفظية حيوية في الزمان والمكان يديرها شخصان أو أشخاص بالكلام وبغير الكلام» (الميساوي، 2015، ص. 178). نتبيّن من هذه التعريفات أنّ الخطاب يغلب عليه الطابع الشفوي بما يتطلبه من قيود إنتاجية وإجرائية، ويدور بين متلفظين [أنا] و[أنت] ينتجان ملفوظا يتجاوز الجملة من حيث الطول. ولكن هناك من الدارسين من يربطه كذلك بالمكتوب، أي: النص؛ فيرى أنّ أيَّ خطاب شفوي يمكن أن يحول إلى نص مكتوب بشروط وخصائص خطابية، مثل: كتابة لوائح اللوم والاعتذار، والثناء، والاتهام، والدفاع، والنصوص القانونية والإدارية، والبيانات السياسية، والخطب الدينية، وغيرها، وهي نصوص مكتوبة ولكنها ذات طابع شفوي يسهل تحويلها من الشفوي إلى المكتوب والعكس صحيح. وتشير هذه

(1) انظر كذلك حول الفرق بين النص والخطاب: (الزّناد، 2011).

(2) انظر حول هذا التعريف:

Dictionnaire de Français Larousse: https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/discours/25859

(3) انظر كذلك:

Collins English Dictionary: https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/discourse

الأنواع من الخطابات إلى تجذرها في عملية الاتصال بين المتخاطبين، أي في الواقع التواصلي والتفاعلي في سياق معيّن وأمام جمهور معيّن منتج ومتلق في الآن نفسه. ولا توجد طريقة قياسية لكتابة الخطاب فلكل خطاب كتابة خاصة بنوعه وسياقه وأهدافه التواصلية وموضوعه؛ لذلك عادة ما يرد مصطلح الخطاب مخصصا بصفة تعرّفه وتحدّد نوعه ومجاله التواصلي، فنقول: الخطاب السياسي، والخطاب الديني، والخطاب النقدي، والخطاب الإعلامي، والخطاب الاجتماعي، والخطاب الثقافي، والخطاب التعليمي، والخطاب الفلسفي، إلخ.

3. الخطاب في الدراسات الفلسفية والنقدية

سبقت دراسات الخطاب دراسات اهتمت بفلسفة اللغة، وكان من أبرز مؤسسيها فيتغنشتاين وميخائيل باختين وميشال فوكو، «ولكن إسهاماتهم لم تكن لتهتم إلاّ بجزء من هذا الحقل الكبير، ولم ينحت أيّ منهم -تحت أيّ مسمى آخر- مجالا يغطي تقريبا تحليل الخطاب الحالي» (منغنو، 2020، ص. 3). ونتبيّن من هذا أنّ هناك فرقا بين دراسات الخطاب التي تأسست ضمن حقل الفلسفة خاصة ما قدمه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو، وكذلك الخطاب ضمن حقل الدراسات الأدبية والنقدية التي ظهرت تحت مسمى دراسات ما بعد البنيوية. فقد ربط فوكو مفهوم الخطاب[1] بالتاريخ والمعرفة، وتاريخ العلوم، والسلطة والإرادة، والمراقبة، والعقاب، والجنس والأخلاق[2]، واستند في ذلك إلى التحليلات التاريخية والأركيولوجية والفلسفية؛ فنظر إلى اللغة باعتبارها منتجة لخاطبين اثنين: خطاب شارح للغة الخام وخطاب تأويلي لما هو مخفي في بطون النصوص، وفي منظوره «بالفعل، فإنّ اللغة توجد أولا، في كيانها الخام البدائي...لكنها سرعان ما تتيح ولادة شكلين آخرين من الخطاب يحيطان بها من كل الجهات: فوقها الشرح الذي يستعيد المعطى في كلام جديد، ومن تحتها النص الذي يفترض الشرح أولويته المخفية تحت العلامات المرئية للجميع» (فوكو، 1990، ص. 58)[3] ويعرّف فوكو الخطاب بقوله: «هو أحيانا يعني الميدان العام لمجموع الملفوظات (énoncés)، وأحيانا مجموعة أخرى من الملفوظات، وأحيانا ثالثة ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة

(1) ظهر مفهوم الخطاب عند فوكو في كتابين رئيسيين هما: (Foucault, 1969)
(2) انظر: (بغورة، 2000).
(3) انظر: (بغورة، 2000، ص. 55).

وصف على عدد معين من الملفوظات وتشير إليها» (فوكو، 1986، ص. 78). ويبدو من هذا أنّ المنطوق أو الملفوظ هو محور الخطاب، وعليه يرتكز وجوده؛ فالمنطوق صفة تميز الخطاب عن مجموعات أخرى قد تتشابه معه، مثل: النصوص المكتوبة. ويمكن للمنطوق أن يدوّن ويكتب ويكرّر، أي: يتحوّل من الشفوي إلى المكتوب بطرق معينة ومناهج متفق عليها؛ لذا يعتبر المنطوق الإشارة الأولى لعملية التحليل التي تشمل اللغة والحياة الاجتماعية الطبيعية.

ويرى فوكو أنّ الخطاب يكمن في العلاقة بين الاسم والمسمى، أي: في علاقة التمفصل بينهما؛ فالاسم معزولا لا يدخل في التمثيل وكذلك المسمى، وبالتالي فهما من نظام اللغة، وحين توجد علاقة تمفصل بينها ينتج عن ذلك الخطاب. وبهذا تكمن مهمة الخطاب في إسناد اسم للأشياء؛ «فلكي تتمكن الكلمة من التعبير عما تعبر عنه، عليها أن تنخرط في نظام نحوي كلّي يكون بالنسبة إليها الأسبق والمحدد الأساس» (فوكو، 1990، ص. 236). ولكن لكي يكون الخطاب خطابا عليه أن ينخرط في تشكيلة خطابية تحدد ميدانه وتضبط قوانين اشتغاله في الممارسة التاريخية والاجتماعية في إطار «أركيولوجيا المعرفة»، ويتسم ميدانه بأنّه ممارسة فعلية للملفوظات، أي: ما ينطق به من أحداث كلامية أو ما تعتبره نظرية أفعال الكلام أفعالا كلامية. لأجل ذلك يرتبط الخطاب بالمنظومة التكوينية، وهي «ليست إطارا ثابتا ولا شكلا ساكنا يفرض نفسه على الخطاب» (بغورة، 2000، ص. 109)؛ فلكل خطاب منظومته الخاصة به تمثل جزءا من تكوينه الذاتي، فيميزه ذلك عن النص المكتوب الذي يصنف عادة ضمن جنس من الأجناس القارة، مثل: القصة، أو الرواية، أو السيرة الذاتية، أو الشعر، إلخ. وكذلك يرتبط مفهوم الخطاب عند فوكو بمفهوم الممارسة التي تتأسس على «مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوما في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمنية بعينها وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي، أو لساني» (فوكو، 1986، ص. 113). ولذلك فالخطاب ممارسة في علاقة بالذات المنتجة له -أي: المتكلم-، وكذلك في علاقة بشروط إنتاجه. أي: أنّ الممارسة يجب أن ترتبط بفضاء المكان، والزمان، واللغة المستعملة، والجوانب الاقتصادية والاجتماعية المقيدة لعملية الإنتاج. وهي ممارسة مشروطة باستراتيجيات الخطاب[1].

(1) انظر حول رهانات الاستراتيجيات في الخطاب عند فوكو البحث التالي:
(Corneliu, 2014, p.p. 526550-).

ولا يبحث فوكو في تكوين بنية الخطاب، ولا يعنيه حدوث المعنى، بقدر ما يعنيه تحولات المعنى، أو توقفه ليظهر شيء جديد؛ فهو يهتم بكيفيات اشتغال الخطاب في مرحلة تاريخية معينة[1]، معتمدا على التقابل بين اللغة الخطابية واللغة غير الخطابية؛ ليحدد مفهوم الخطاب باعتباره نظرية فلسفية تقوم على تحليل الأفكار؛ فـ«الخطاب والمنطوق والتشكيلات الخطابية يتنافى وما تعودنا على تسميته في إطار تاريخ الفكر بالنص، والأثر، والقضية، والجملة، والمجال العلمي، أو الفرع العلمي؛ فهذه المفاهيم كلها في نظر فوكو لها علاقة بوهم الأفكار الاتصالية. وما يريد تأسيسه هو تاريخ القطائع، والانفصالات؛ لذلك اعتمد على مفهوم الخطاب كحدث تاريخي يطبعه الانفصال والقطيعة» (بغورة، 2000، ص. 113). لذلك فإن تحليل الخطاب عند فوكو «لا يكون فقط بكلمات لسانية، كما أنه ليس حالة داخل اللغة... الخطاب شيء بالضرورة يتجاوز اللغة» (فوكو، 1989، ص. 39). ولأجل ذلك وضع فوكو منهجا تحليليا خاصا به سماه «الأركيولوجيا»، يقوم على الحفر والتنقيب في ملفوظات الأرشيف، وصفا وتكوينا داخليا وخارجيا؛ فالمنهج عنده هو الحفر في كيفية تكوين الخطاب وظهوره إلى الوجود، وتحليل الخطاب عنده هو التحليل الأركيولوجي للمنطوق، باعتباره حدثا كلاميا قابلا للتدوين والتكرار، ويتميز عن العمل الأدبي أو العلمي اللذين أخرجهما فوكو من دائرة تحليل الخطاب، «وفي إطار هذه النظرة المحددة مسبقا فإن التقطعات المفترضة بين فترات فوكو خاصة تلك التي تميز بين الأدب / الخطاب والسياسة/ السلطة والأخلاق/ الذاتية، وتلك التي حولها تنتظم المنتجات اللاحقة في مختلف الأرضيات العلمية ستبقى دائمة، لكنها لا تستنفد إمكانية القراءات الأخرى التي قد تكون أقل اتساقًا مع الأقسام التخصصية الداخلية والخارجية، أو مع التقسيم القطاعي المتوقع حسب موضوع البحث» (رينغوت، 2010، ص. 11).

نستنتج مما سبق أن مفهوم الخطاب في المنظور الفلسفي والنقدي يبقى أقرب إلى مفهوم القول، أي: ما تسمح به اللغة والفكر من إنتاج خطابات شفوية أو مكتوبة، منه إلى مفهوم التخاطب المبني على التفاعل والتشارك في إنتاج التبادل الكلامي الحي، وهو مجال تحليل الخطاب. ولهذا السبب وغيره ميزت اللسانيات بين «دراسات الخطاب» التي هي شأن فلسفي ونقدي يبحث في طرق إنتاج الفكر وطرق نقده،

(1) انظر: (الزواوى، ص. 80)

و«تحليل الخطاب» الذي هو شأن لساني واجتماعي يشتغل على بيان قوانين إنتاج التخاطب أو التحادث وآليات تحليله اللسانية وغير اللسانية.

4. الخطاب في الدراسات اللسانية

ارتبط مفهوم الخطاب في الدراسات اللسانية أول مرة ببيسونس Buyssens سنة (1943)[1]، ثم بدأ يأخذ مسارات مختلفة في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة بعد ظهور مقال زليغ هاريس (1952) الذي فتح مسلكا جديدا في الدراسات اللسانية المهتمة بلسانيات النص في أوروبا وتحليل الخطاب في الدراسات اللسانية الأمريكية، ولذلك ميز الدارسون بين مدرستين في تحليل الخطاب مدرسة فرنسية (أوروبية) ومدرسة أمريكية (أنغلوسكسونية)، وفي هذا الإطار تم التمييز بين الخطاب وتحليل الخطاب[2]، فقد برزت الدراسات المؤسسة لمفهوم الخطاب في اللسانيات في عدة توجهات، من أبرزها ما ألفه رولون بارت سنتي (1964، 1966) الذي رأى أنه «لتحديد الخطاب، يجب أن نتجاوز ما هو لساني إلى ما هو «عابر للساني» مع مادة بحثية، مثل: الأسطورة، والسرد، وأشياء الحضارة، شريطة أن تتحول إلى كلام منطوق» (بارت، 1964، ص. 81). وهنا يبرز شرط الشفوية محددا أساسيا في مفهوم الخطاب، ثم طور هذا التعريف ليهتم بالجانب الشكلي؛ فأصبح «الخطاب جملة كبيرة... كما أن الجملة هي خطاب صغير» (بارت، 1966، ص.3). من ذلك نستنتج أن الخطاب عنده هو كلام منطوق قد يكون جملة صغيرة أو كبيرة. أمّا بالنسبة إلى بنفنيست؛ فالخطاب عنده يمثل مستوى من مستويات الدلالة، ويجب دراسته في علاقة باللغة؛ إذ لا يمكن فصله عن دراسة العلامة اللغوية التي تنتجه وتؤوله (بنفنيست، 1974، ص. 50). ولأجل ذلك أصبح الخطاب في نظرية التلفظ مرتبطا بالنظام الداخلي للغة والعالم الخارجي الذي يحيل على المتكلم، أي: يرتبط بما هو لساني، وما هو غير لساني، وأصبح المتكلم أو المتلفظ عنصرا أساسيا في تكوين الخطاب وتحليله.

وفي اللسانيات الأمريكية أو الانغلوسكسونية ارتبط مفهوم الخطاب بالدراسات الميدانية التجريبية في إطار اللسانيات الاجتماعية، والانثروبولوجيا، واتنوغرافيا الاتصال، واللسانيات التفاعلية، وعلم الاجتماع اللغوي، وهي دراسات تعتمد

(1) انظر كتابه: (Buyssens, 1943).

(2) انظر حول هذه المسألة كتاب: (منغنو، 2020).

على تسجيل المحادثات وتحليلها من زوايا منهجية مختلفة[1]. فبذلك تحدد مفهوم الخطاب على أسس لسانية واجتماعية، شريطة أن يكون مستعملا؛ إذ اعتبر فاركلاف أنّه «عند استعمال مصطلح الخطاب أقترح المحافظة على اللغة المستعملة باعتبارها شكلا من أشكال النشاط الاجتماعي» (1992، ص. 16). وبهذا ارتبط النشاط اللساني بالنشاط الاجتماعي والثقافي، وما يفرضه المحيط على عملية الإنتاج والفهم والتأويل من مؤثرات وقيود سياقية وبراغماتية. ونستنتج مما سبق من آراء وتعريفات أن منطلق الخطاب في المدرسة الفرنسية/ الأوروبية هو الفكر الفلسفي والنقدي واللساني[2]، وهو شفوي ومكتوب، حيث تكون الكتابة فيه في الأصل إنتاجا شفويا تحول إلى مكتوب، مثل: الأسطورة والحكاية والتاريخ، إلخ. أما الخطاب في اللسانيات الأمريكية فأسس على المنطلقات الاجتماعية والثقافية واللسانية، وهو استعمال شفوي مباشر مجاله دراسة المجموعات المتلفظة في ميادين بحثية مختلفة.

5. العلاقة بين الخطاب وتحليل الخطاب

يدخل الخطاب بدقة من الناحية اللسانية في تقابلات ثلاثة كبرى يمكن أن تحدد مفهومه، وهي: الخطاب مقابل الجملة، والخطاب مقابل اللغة، والخطاب مقابل النص[3]. فالخطاب إذن وحدة لسانية تتجاوز الجملة من الناحية الكمية، وهو مرتبط بالاستعمال اللغوي من الناحية المفهومية. والخطاب عند منغنو محدد بالخصائص التالية:

1. وحدة لسانية تتجاوز الجملة.
2. شكل فعلي/ أفعال كلامية.
3. شكل تفاعلي يشترك فيه شخصان أو أكثر ويقوم على التبادل الكلامي الشفوي.
4. ينتج في سياق.

(1) انظر: (الميساوي، 2023).

(2) تختلف المنطلقات اللسانية الأوروبية عن نظيرتها الأمريكية من حيث الخلفية الإبستيمولوجية والمنهجية، فاعتمدت المنطلقات التاريخية والمقارنة، ثم اهتمت بدراسة النظام اللغوي في علاقته بالمنطق والمعنى. أما اللسانيات الأمريكية فقد اهتمت بدراسة المدونة الشفوية انطلاقا من الانتروبولوجيا والدراسات الميدانية المتصلة بالمجتمع في الحياة اليومية.

(3) انظر: (الميساوي، 2015).

5. يحمل على المتكلم (أنا / الآن/ هنا).
6. محكوم بقواعد (قوانين الخطاب، قواعد المحادثة، مصادرات المحادثة).
7. ينظر إليه في علاقته بتداخل الخطابات (مسألة الفهم والتأويل).
8. يكوّن المعنى اجتماعيا، أي: أنّ إنتاج المعنى فيه يخضع للممارسات الاجتماعية[1].

وأمام هذا التمشي الفلسفي واللساني الذي عرفته المدرسة الفرنسية ظهرت «نظرية الخطاب» المنبثقة عن المناقشات الفلسفية المهتمة باللغة، وهي مختلفة عن «تحليل الخطاب» بالمعنى الدقيق؛ إذ تهتم نظرية الخطاب بالمشاريع الثقافية التي تمزج بطرق مختلفة الانشغالات بمسائل ما بعد البنيوية والدراسات الثقافية والبنائية، وتطرح أسئلة تتعلق بمقتضيات العلوم الإنسانية والاجتماعية، خصوصا حول الذات، والمعنى، والسلطة، والاختلاف الجنسي، والكتابة، واختلاف الرأي، وما بعد الاستعمار. وفي هذا الإطار تم التمييز بين «دراسات الخطاب» discourse studies التي تهتم بإشكاليات الخطاب، و«تحليل الخطاب» discourse analysis الذي يهتم بوقائع اللغة. وبالتالي تختلف أسئلة الخطاب عن أسئلة تحليل الخطاب؛ فتهتم الأولى بالقضايا الفكرية والفلسفية كما طرحها فوكو وغيره في المدرسة الفرنسية أو (كوك غي، 1989) و(جيمس بول غي، 1999) وغيرهما في المدرسة الأنغلوسكسونية، وتهتم الثانية بفحص المظاهر البنيوية ووظائف استعمال اللغة في المحادثة كما هي في الواقع مثلما طرحتها المدرسة الأمريكية. ولذلك في رأي مؤلفي «دليل تحليل الخطاب»، «ليست القضايا المرتبطة بتعريف الخطاب وتحليل الخطاب شيئا واحدا بأي حال من الأحوال.» (شيفرن وتانن وهاملتون، 2001 [2022]، ص. 25).

ويقع الخلط الثالث بين الخطاب والنص جرّاء غياب الوعي الدقيق الذي يميّز بين خصوصيات كل مصطلح منهما؛ نظرا إلى العلاقة المعقدة بينهما التي لا يسهل تفكيكها إلا من قبل المختصين[2]. فيشترك النص مع الخطاب في القضايا البنيوية، مثل: (الربط، والترابط، والإحالة، والتضمين، والتركيب...)، ويختلف الخطاب عن النص بما يضيفه من أنشطة اجتماعية شفوية، مثل: (الإيماءات، وفضاءات التخاطب، والنظرات، والتنغيم، والعلاقة بين المتكلمين...) . فهناك بعض النصوص تنتمي إلى

(1) انظر حول هذه القواعد والشروط: (منغنو، 2020).
(2) انظر (الميساوي، 2015). وانظر: (الزناد، 2011).

جنس الخطاب؛ لأنها نصوص تواصلية، مثل: المعلقات الإشهارية، والإعلانات، والجرائد. وهناك نصوص لا تنتمي إلى جنس الخطاب، مثل: النصوص الدينية والأدبية والتوثيقية... حتى وإن اعتبرنا الأدب بمثابة الخطاب فإننا سننشغل بالتقسيم التقليدي للدراسات الأدبية الذي ينقسم إلى فرعين: فرع يهتم بالنص في حدّ ذاته، وفرع يهتم بالسياق الذي أنتج فيه النص وصاحبه والحقبة التاريخية، وهي في هذه الحالة أقرب إلى «تحليل المحتوى» الذي يعتمد على استخراج المعنى من الوثائق، ولهذا الغرض ظهرت لسانيات النص، ولذلك لا يدرس تحليل الخطاب الأعمال الأدبية التي تكوّن مدونة مسبقة، مثل: دواوين الشعر والأعمال الأدبية؛ بل يدرس المحادثات والمناقشات والحوارات التلفزية الحية، إلخ. وبالتالي يختلف النص عن الخطاب حسب طبيعة المدونة، فمدونة النصوص معدة مسبقا، بينما مدونة الخطاب حينية، تخضع للنسخ والتدوين وفق طرق علمية خاصة متفق عليها. إذن لا يكمن موضوع تحليل الخطاب في كيفية اشتغال النصوص ولا وضعية الاتصال؛ بل هو ما يربطهما بالجهاز التلفظي، الذي يرتبط بدوره بالشفوي والمؤسسي على حد السواء؛ لذلك يكوّن الجانب اللساني والاجتماعي معا مجال تحليل الخطاب، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما، وإلا ستكون عملية الاشتغال في الخطاب بعيدة كل البعد عن تحليل الخطاب. وانطلاقا من هذا التصور يمكن أن نحل الإشكاليات المتعلقة بالنص والخطاب وتحليل الخطاب بالاعتماد على المدونة التي يحللها كل في مجال تخصصه. وعليه يمكن للدراسات العربية التي تسودها فوضى المصطلح وعدم التمييز بين التخصصات أن تراجع نفسها، وتدقق مجالات تخصصها وفق الشروط العلمية، وليس وفق الأهواء والنزعات الإيديولوجية، إلخ.

6. الأسس المنهجية لتحليل الخطاب

تتعدد مقاربات تحليل الخطاب بتعدد أنواع الخطاب، فيمكن أن نضع لكل نوع خطابي مقاربة تناسبه، والمنطلق في ذلك دائما هو الخطاب نفسه، ولذلك تختلف مقاربات التحليل المتبعة في تحليل الخطاب السياسي -مثلا- عن المقاربات المتبعة في تحليل المحادثة العفوية الحرة، والأمر نفسه بالنسبة إلى الأنواع الأخرى. لكن هذا التنوع في الخطابات والمقاربات ليس معزولا ومستقلا عن بعض الثوابت المشتركة، مثل: المتكلم أو المشارك، والسياق، ووضعية التلفظ، والتفاعل، والتواصل. ولكي

نضبط الأسس المنهجية لتحليل الخطاب علينا أولا أن نعرّفه، ونحدد مجالاته، ومن يقوم بتحليله.

6.1. ما تحليل الخطاب؟

انقسمت الدراسات اللسانية في القرن العشرين خاصة في النصف الثاني منه إلى مسارين اثنين، هما: مسار يدرس اللغة باعتبارها نظاما رمزيا مشفرا (Language code)[1]، ومسار يدرس اللغة في علاقتها بالواقع وبالمجتمع (language discourse)[2]. وإذا قبلنا بهاتين المقاربتين المختلفتين في البحث في نظام اللغة وانتظامها، فليس من الدقة أن نعتبر المقاربة الثانية ـ أي: تحليل الخطاب ـ حديثة النشأة في المطلق، دون وجود أي أصل تتصل به في الدراسات اللغوية في الماضي. فالعلماء القدامى الإغريقيون والرومانيون كانوا واعين بهذا الفصل والاختلاف؛ ففصلوا الدارسات الخطابية (البلاغية) عن الدراسات النحوية، واستمرت هذه الرؤية في الدراسات اللغوية التي تدرس القواعد اللغوية دراسة مجردة عن السياق إلى أن ظهرت نظرية أفعال الكلام، وطرحت السؤال المركزي: كيف نصنع الأشياء بالكلمات؟، وكيف ننجز الوقائع والتأثيرات، ونحقق تواصلا ناجحا مع الآخرين في سياقات مختلفة؟[3]، و«بطريقة تهكمية يستخدم بعض علماء تحليل الخطاب مصطلحات من الخطابة القديمة، رغم أنهم في أغلب الأحيان يعتبرونه من أحدث الدراسات اللسانية» (كوك، 1989، ص. 12)، علمًا أن الدراسات عبر التاريخ لم تخلُ من دراسة اللغة في السياق، لكنها لم تتجاوز الجملة إلى أن جاءت لسانيات القرن العشرين، واعتبرت اللغة جزءا من المجتمع والعالم؛ فبرزت دراسات في أمريكا الشمالية اهتمت بلغات الأقليات (الهنود الحمر)، وتأصيلها في الواقع الاجتماعي والثقافي. وفي بريطانيا أثرت دراسات فيرث الذي اهتم باللغة وعلاقتها بالمجتمعات في بلورة رؤية جديدة في الدراسات اللسانية. ولذلك يمكن أن نعتبر هذين المنطلقين من المنطلقات الأساسية التي مهدت لظهور علم جديد على يد زليق هاريس (1952)؛ فكان التحول الأول الرئيسي في لسانيات الخطاب، متجاوزا بذلك لسانيات الجملة[4]. وأما بالنسبة

(1) تندرج ضمن هذا المسار النصوص الدينية والأدبية والإبداعية بشكل عام.
(2) تندرج ضمن هذا المسار الخطابات الناتجة عن الممارسات الاجتماعية التفاعلية والتواصلية.
(3) انظر حول هذه، المسألة: (Guy، 1989، ص. 12)
(4) انظر: (الميساوي، 2012).

إلى براون ويول فإنّ مصطلح تحليل الخطاب يستعمل استعمالات عديدة ذات معان مختلفة، تشمل أنشطة متعددة حسب المجالات المتنوعة، فهو يستعمل لوصف الأنشطة اللسانية المتقاطعة بين عدة اختصاصات لسانية متنوعة، مثل: اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الفلسفية، واللسانيات الإحصائية[1]. وقد أدى هذا التشابك بين الاختصاصات إلى طرح أسئلة جوهرية عديدة، من بينها: ما هو تحليل الخطاب؟ ومن يقوم به؟، وهل تحليل الخطاب علم قائم بذاته أم تتجاذبه عدة أطراف؟ وأمام هذا التشابك والتجاذب: ما هو المنهج المتبع في التحليل؟، وهل هو نفسه في كل الاختصاصات؟، ولحل هذه القضية رأى كوك «أنّ التمييز الناجع يكمن في التفكير بأنّ الاختصاصات الأخرى تدرس مواضيع أخرى عبر الخطاب، في حين أنّ تحليل الخطاب يهتم بدراسة الخطاب في المقام الأول، ومع ذلك يمكنه أن يرحل إلى عدة ميادين أخرى مختلفة، مع الحرص الدائم على العودة إلى موضوعه الرئيسي» (1989، ص. 13). من ذلك نستنتج أن الاختصاصات الأخرى يمكنها أن تستفيد من مناهج تحليل الخطاب، دون أن تدعي لنفسها امتلاك هذا الاختصاص، وبهذه الطريقة يضمن تحليل الخطاب استقلاليته، ويضبط مناهجه وطرق اشتغاله. وكذلك يمكننا تصحيح ما وقعت فيه الدراسات من خلط بين الخطاب وتحليل الخطاب؛ إذ «من المؤكد أنّ في السنوات الأولى من تحليل الخطاب الفرنسي اهتم اللسانيون والمؤرخون وعلماء الاجتماع بدراسة مفهوم التشكيل الخطابي، وكان تركيزهم حول ما أرساه ميشال بيشو من توجه نحو دراسة الأديولوجيات والسياسة» (رينغوت، 2010، ص. 10). فقد أحدثت المفاهيم التي جاء بها فكو وبيشو تشتتا في الدراسات الفرنسية التي اهتمت بتحليل الخطاب، وأثارت مشكلة التصنيف عند الدارسين خاصة أولئك الذين يحللون الخطابات الصحفية والسياسية والعلمية.

أما في الدراسات الأنغلوسكسونية فيدرس محللو الخطاب الآليات التي تشكل الخطابات من الناحية اللسانية والتفاعلية، وكيفية تناسبها مع الواقع الاجتماعي، فهم يركزون على الطرق التي يستخدم بها الناس اللغة في الحياة اليومية وعلاقة ذلك بعملية التواصل، أي: بالمكان والزمان والمتكلم، وكذلك البحث في طرق الاستخدام اللغوي وعلاقته بالإنتاج والفهم والتأويل. وبصفة عامة يهتمون بثلاثة محاور كبرى، هي: «الاتصال والثقافة والمجتمع» (ماريان يورغنسن، لويز فيليبس،

(1) انظر مقدمة كتاب: (Brown &Yule, 1983).

2002، [2019]، ص. 14). وهم يرون في ذلك أنّ اللغة لا تحلل أبداً في حد ذاتها، بل تدمج مع أشياء أخرى، مثل: نغمة الصوت، والإيماءات، وتعبيرات الوجه أثناء الكلام، وعلاقة كل هذا بعملية التلفظ. ولذلك فإن تحليل الخطاب قائم على التفسير والتأويل والتشكيل؛ فالتفسير يعتمد على مقاربات تحليلية تتصل مباشرة ببنية الخطاب اللسانية، ويعتمد التأويل على كفاءة المحلل اللسانية والتواصلية والثقافية والاجتماعية، ويهتم التشكيل بضبط قوانين اشتغال الخطاب وطرق ترميزها رياضيا، أي تحويلها إلى معادلات رياضية حتى تكتسب صفة العلمية، وهذا ما برز في عدة مقاربات ومناهج تحليلية. ولعل أبرز ما ألف في مجال تحليل الخطاب في الدراسات الأنغلوسكسونية كتاب «دليل تحليل الخطاب» الذي قدم للقارئ مقاربات تحليلية متنوعة ورصينة نابعة من دراسات ميدانية مختلفة قائمة على دراسة الاستعمال اللغوي التجريبي الواسع والشامل لاختصاصات مختلفة. فقد برهن المشرفون عليه على هذا الأمر بقولهم: «قادتنا تجاربنا الخاصة في هذا المجال إلى الاقتناع بأنّ اتساع تحليل الخطاب وتنوعه هما قوة جبارة لا مظهر وهن، وبدل أن يكون التنوع النظري والمنهجي في تحليل الخطاب مَغْرما يُتَذَمَّر منه بسبب عدم وجود نظرية واحدة متماسكة، فقد وجدناه نحن مغنما. ومن ثم، فإننا نرى هذا الكتاب[1] ميسرا لاستخدام الموارد النظرية والتحليلية الكثيرة التي تنتشر حاليا في دراسة الخطاب استخداما يتعاون فيه اللسانيون وغيرهم ممن يُعنَى بدراسات اللغة القائمة على أساس تجريبي» (شيفرن وتانن وهاملتون، 2001 [2022]، ص. 30). ونستنتج من هذا القول أنّ التنوع الخطابي والمنهجي يشكل دعامة إيجابية تثري عملية التحليل، فتعدد المناهج والمقاربات يجعل المحللين يتعاونون من أجل بناء نظرية شاملة تعنى بجميع أنواع الخطابات في شتى التخصصات، ولذلك نعتبر أنّ المقاربات البراغماتية المتنوعة[2] واللسانيات الوظيفية والاجتماعية والنظريات الحجاجية والتواصلية والعرفانية والمناهج التفاعلية والتأويلية والإحصائية والنفسية والاستدلالية وغيرها يمكن الاعتماد عليها في تحليل أيّ نوع من أنواع الخطاب مهما كان ميدان إنتاجه، شريطة أن يكون المحلل واعيا بالفوارق بين الخطاب والنص وكذلك خصوصيات الشفوي

(1) المقصود هنا هو كتاب «دليل تحليل الخطاب» (2001)، وترجم إلى العربية سنة (2022).
(2) انظر: (الميساوي، 2023).

والمكتوب[1]. كما نرى أنّ المكتوب الخطابي يختلف عن النص الإبداعي مثلما يختلف على سبيل المثال النص الصحفي عن النص الأدبي؛ فالأوّل نص خطابي، والثاني نص إبداعي. والمقصود بالنص هنا، هو المشترك البنائي، أي: النسيج الذي به ألف النص، أو قيل الخطاب. ولكن رغم هذا المشترك البنائي فإن طرق استخدام اللغة مختلفة، وهو ما يفرض طرقا متنوعة في الإنتاج تؤدي إلى تنوع طرق المعالجة والتحليل؛ فأفرز ذلك مجالين مهمين في لسانيات ما بعد الجملة، أطلق عليهما الباحثون لسانيات النص، التي تعنى بدراسة النصوص الإبداعية والنقدية، وتحليل الخطاب الذي اعتنى أصحابه بتحليل الخطابات الشفوية أو ذات الطابع الشفوي في الكتابة، أو ما يمكن أن نسميه بالكتابة الشفوية[2]. وانطلاقا من هذا التمييز يمكن أن نحدد المقاربات التي يتبعها كل محلل، وفقا لطبيعة المادة التي يجري عليها التحليل سواء كانت نصا أو خطابا. ولهذا نطرح سؤالين جوهريين من هو محلل الخطاب؟، وماذا يحلل؟

تجمع الكتب الرئيسية التي اهتمت بتحليل الخطاب أنّ من يقوم به هو لساني، وعلى وجه الخصوص اللساني ذو التوجه الاجتماعي والنفسي والتواصلي والأنثروبولوجي والبراغماتي، فهذه شروط لابد أن تتوفر حتى يسمي المحلل نفسه محللا للخطابات، مهما كان اختلاف مواضيعها ومنطلقات أصحابها التخصصية، وهذا ما أكده مؤلفو كتاب «دليل تحليل الخطاب» بقولهم: «إنّ سيرنا الفكرية/ الأكاديمية الخاصة- **وجميعها في اللسانيات**- تكشف بعض المسارات المختلفة التي أدت بنا إلى الاهتمام بالخطاب». (شيفرن وتانن وهاملتون، 2001 [2022]، ص. 26). وإذا حسمنا هذا الأمر وحددنا هوية محلل الخطاب التي نؤكد على أن المنطلق فيها يجب أن يكون لسانيا، ثم نضيف إليه نوعا من أنواع اهتمامات الخطاب؛ لنحدد ميدان اشتغاله، مثل: الخطاب السياسي، أو الإعلامي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، أو التعليمي، إلخ. فإننا نؤكد كذلك. وكما ذهبت إلى ذلك بحوث عديدة ـ أنّ تحليل

(1) انظر حول المقاربات التي تهتم بتحليل النصوص والخطابات وقد جمع منها ستيفان تيتشر وآخرون اثنتي عشر مقاربة في الكتاب التالي: (Titscher, Meyer, Wodak, Vette, 2000).

(2) انظر حول مسألة تدوين الشفوي البحوث الموجودة في كتاب «دليل تحليل الخطاب» وهي التالية: دوغلاس بايبر وسوزان كونراد، «اختلاف السجل: مقاربة المدونة، ص218. وجاين أ. إدواردز، «تدوين الخطاب»، ص. 381.

الخطاب يندرج في الغالب ضمن مجال اللسانيات التطبيقية؛ إذ «هناك كثير من الأعمال [في تحليل الخطاب]، ولكن ليس في كل الحالات يتم إجراء قدر كبير من تحليل الخطاب من قبل اللسانيين الذين لا يصفون أنفسهم بالمطبقين، ومن قبل كثير من العلماء في التخصصات الأخرى، مثل: علم الاجتماع، وعلم النفس، والعلاج النفسي، على سبيل المثال، الذين لا يسمّون أنفسهم لسانيين. ولذلك فتحليل الخطاب هو جزء من اللسانيات التطبيقية، لكنه لا ينتمي إليها حصريا. إنه مجال متعدد التخصصات، ونطاق اهتماماته متنوع بشكل كبير» (ترابس- لوماكس، 2004، ص. 133). ورغم هذا التنوع والتعدد في الاختصاصات المهتمة بتحليل الخطاب فإنّ المنطلق في التحليل يكاد يكون واحدا، وهو اللسانيات بفروعها والبراغماتية، ولذلك نعتبرهما الأساس الفكري والمنهجي في أيّ عملية تحليل خطابي. وقد ذكر ترابس- لوماكس (2004، ص. 134) عددا كبيرا من الكتب التي اهتمت بتحليل الخطاب[1]، نستنتج من عناوينها أن مجال تحليل الخطاب هو دراسة اللغة في الاستعمال، بقطع النظر عن نوع الخطاب وانتمائه إلى مجال بحثي معين، مع إمكانية أن نحصر ذلك في اللغة، والمتكلم، والمجتمع، والعلاقات المتشابكة بين هذه الأطراف في عملية الاتصال، وما يحكمها من مؤثرات سياقية وبراغماتية. ومنذ

(1) هذه العناوين التي اهتمت بتحليل الخطاب في التسعينيات من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين.

That this is no overstatement may quickly be demonstrated by indicating something of the range of discourse-related books published in recent years: discourse and politics (Schäffner & Kelly-Holmes, 1996; Howarth et al., 2000); ideologies (Schäffner, 1997), and national identity (Wodak et al., 1999); environmental discourse (Hajer, 1997; Harre, Brockmeier, & Muhlhausler, 1999); discourse and gender (Walsh, 2001; Wodak, 1997; Romaine, 1998); discourse of disability (Corker & French, 1999) and the construction of old age (Green, 1993); applied discursive psychology (Willig, 1999); professional discourse (Gunnarson, Linell, & Nordberg, 1997) and professional communication across cultural boundaries (Scollon, Scollon, & Yuling, 2001); the discourse of interrogation and confession (Shuy, 1998); academic discourse (Swales, 1998); discourse in cross-cultural communication (Hatim, 2000) and translation (Schäffner, 2002); discourse in everyday life (Locke, 1998; Cameron, 2000; Delin, 2000) and, at some remove from the everyday, divine discourse (Wolterstorff, 1995).

أن توجه البحث اللساني إلى دراسة اللغة في حالة الاستعمال في الحياة اليومية للناس أصبح تحليل الخطاب يهتم بالوقائع اللسانية وغير اللسانية وتحليلها تطبيقيا، فـ«يقوم محللو الخطاب بتحليل ما يفعله الناس باللغة في تجاربهم اليومية بطريقة غريزية وبلا وعي إلى حد كبير، فهم يهتمون بالنماذج اللغوية في حالة الاستعمال والملابسات (المشاركون، المقام، الأهداف، النتائج) التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا. ويكمن دور محللو الخطاب في هذا النشاط العادي في الملاحظة بوعي وتروّ وبشكل منهجي وبقدر الإمكان بموضوعية، حتى ينتجوا حسابات (توصيفات، تأويلات، تفسيرات) لما كشفته تحقيقاتهم». (ترابس-لوماكس، 2004، ص. 133). وهكذا بمثل هذا الضبط المعرفي والمنهجي وتحديد مجالات تحليل الخطاب وتخصصاته طرق تحليله ومنطلقاتها اللسانية وغير اللسانية. ويمكن أن نراجع في ضوء ما تقدم من شروط ومحددات طبيعة هذا الحقل العلمي الحديث، وندفع بالدراسات العربية التي تسم نفسها «بتحليل الخطاب» إلى إعادة النظر فيما تكتب وتحلل، وتطرح التساؤل العلمي الإشكالي في تحديد مسار بحثها، وضبط موضوعه، مقارنة بما يجري في البحوث الغربية الأصيلة، بعيدا عن فوضى الاختصاص؛ حتى نستطيع تأسيس هذا العلم، ونحترم شروط إنتاجه، وضوابطه المنهجية.

7. الخاتمة

كشفت لنا دراسة المصادر المعرفية والأسس المنهجية للخطاب وتحليل الخطاب عن جملة من القضايا تتصل بهما معا، سواء في ضبط المفهوم، أو مجال الدراسة؛ فتبيّن لنا أنّ المفهوم متسع نتيجة اتساع مصادره المعرفية، وأنّ المنهج متنوع بتنوع الخطابات نفسها، وأدى هذا الاتساع والتنوع إلى وجود اضطرابات في تعريف الخطاب والنص، ودراسات الخطاب وتحليل الخطاب في الدراسات الغربية نفسها، وهو ما جعل المدرسة الفرنسية الأوروبية تختلف عن المدرسة الأنغلوسكسونية؛ فاتسمت الأولى بالتشتت وعدم الوضوح الذي استمر فترة طويلة نسبيا إلى أن بدأت الفواصل تتضح نسبيا بين لسانيات النص وتحليل الخطاب. واتسمت المدرسة الأنغلوسكسونية نسبيا بالوضوح والتمييز بين دراسات الخطاب وتحليل الخطاب. ورغم ما يجمع بينها من مقاربات في التحليل تشترك في المنطلقات اللسانية والاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجية والبراغماتية؛ فإن طرق التحليل تختلف أحيانا حسب نوع الخطاب. فقادنا هذا الضبط المعرفي والمنهجي إلى تحديد

مجالات الخطاب، ودراسات الخطاب، وتحليل الخطاب، وتعيين من يقوم بها على أسس عملية، أقرها كبار الباحثين المتخصصين في هذا المجال. ونتيجة لهذا التمشي في الضبط المعرفي والمنهجي طرحنا مشكلة البحوث العربية التي قام بها باحثون عرب تحت هذا المجال، ودعونا إلى إعادة ضبطها وفق التخصص الدقيق، بهدف تطويرها، وضبط مسالكها البحثية؛ حتى يتجنب القارئ العربي عبء الاضطرابات المعرفية، والمصطلحية والمنهجية.

المصادر والمراجع:

المراجع العربية

- الزّناد، أ. (2011). *النص والخطاب: مباحث لسانية عَرفيّة*. تونس: مركز النشر الجامعي/ دار محمد علي للنشر.
- الزواوي، بغورة (2000). *مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- شيفرن، د.، تانن، د.، & هاملتون، هـ.(2022). *دليل تحليل الخطاب* (خليفة الميساوي، العمل الأصلي نُشر في 2001). المنامة: هيئة البحرين للثقافة والترجمة.
- فوكو، ميشال (1986). *حفريات المعرفة* (سالم يفوت، ترجمة). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- فوكو، ميشال (1990). *الكلمات والأشياء* (مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، كمال اسطفان، ترجمة). بيروت: مركز الإنماء العربي.
- ابن منظور. (1994). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
- منغنو، دومينيك (2020). *الخطاب وتحليل الخطاب* (خليفة الميساوي، عامر الحلواني، ترجمة). الأحساء: مركز التأليف والترجمة بجامعة الملك فيصل.
- الميساوي، خليفة (2012). *الوصائل في تحليل المحادثة: دراسة في استراتيجيا الخطاب*. إربد: عالم الكتب الحديث.
- الميساوي، خليفة (2015). *المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم* (ط2). بيروت: منشورات ضفاف.
- الميساوي، خليفة (2023). *مقاربات براغماتية في تحليل المحادثة: مباحث نظرية وتطبيقية*. تونس: دار كلمة.
- يورغنسن، ماريان، & فيليبس، لويز. (2019) *تحليل الخطاب: النظرية والمنهج* (شوقي بوعناني، ترجمة؛ العمل الأصلي نُشر في 2002). المنامة: هيئة البحرين للثقافة والترجمة.

المراجع الأجنبية:

- Barthes, R. (1964). Le degré zéro de l'écriture. Paris: Gouthier.
- Barthes, R. (1966). Introduction à l'analyse structurale des récits. Communications, 8, 1–27. Paris: Seuil.
- Barthes, R. (1968). La mort de l'auteur. In R. Barthes (1984), pp. 61–67.
- Barthes, R. (1971). De l'œuvre au texte. In R. Barthes (1984), pp. 69–77.
- Benveniste, É. (1974). Problèmes de linguistique générale (Vol. II). Paris: Gallimard.
- Bilba, C. (2014). Les enjeux stratégiques de la théorie du discours chez Foucault. Meta, 6(2), 526–550.
- Brown, G., & Yule, G. (1983). Discourse analysis. Cambridge University Press.
- Buyssens, É. (1943). Les langages et le discours. Bruxelles: Office de Publicité.
- Chiss, J.-L. (2005). Les linguistiques de la langue et du discours face à la littérature : Saussure et l'alternative de la théorie du langage. Langages, 159, 39–55.
  https://www.cairn.info/revue-langages-2005-3-page-39.htm
- Collins English Dictionary. (n.d.). Text.
  https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/text
- Collins English Dictionary. (n.d.). Discourse.
  https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/discourse
- Cook, G. (1989). Discourse. Oxford University Press.
- Courtine, J.-J., & Marandin, J.-M. (1981). Quel objet pour l'analyse du discours? In B. Conein et al. (Eds.), Matérialités discursives (pp. 21–34). Presses Universitaires de Lille.
- Crystal, D. (2008). A dictionary of linguistics and phonetics (4th ed.). Blackwell Publishing.
- Cutting, J. (2002). Pragmatics and discourse. London: Routledge.
- Derrida, J. (1967). L'écriture et la différence. Paris: Seuil.
- Dictionnaire de Français Larousse. (n.d.). Texte.
  https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/texte/77624
- Dictionnaire Français Définition. (n.d.). Texte.
  https://dictionnaire.reverso.net/francais-definition/text%C3%A9

- Dictionnaire de Français Larousse. (n.d.). Discours. https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/discours/25859
- Fairclough, N. (1992). Discourse and social change. Polity Press.
- Fairclough, N. (1995). Media discourse. London & New York: Bloomsbury Academic.
- Fairclough, N. (2003). Analyzing discourse: Textual analysis for social research. London: Routledge.
- Fairclough, N. (2009). A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research. In R. Wodak & M. Meyer (Eds.), Methods of Critical Discourse Analysis (pp. 162–186).
- Foucault, M. (1967). Structuralisme et analyse littéraire. Les Cahiers de Tunisie, 149–150, 21–42.
- Foucault, M. (1969). L'archéologie du savoir. Paris: Gallimard.
- Foucault, M. (1971). L'ordre du discours. Paris: Gallimard.
- Gadet, F., & Marandin, J.-M. (1984). La linguistique comme contexte de l'analyse de discours ? Mots, 9, 19–24. https://doi.org/10.3406/mots.1984.1161
- Goffman, E. (1981). Forms of talk. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
- Helsloot, N., & Hak, T. (2000). La contribution de Michel Pêcheux à l'analyse de discours. Langage et société, 91, 5–33. https://www.cairn.info/revue-langage-et-societe-2000-1-page-5.htm
- Maingueneau, D. (2014). Discours et analyse du discours. Paris: Armand Colin.
- Moirand, S. (1999). Éléments de théorisation d'une linguistique du discours. Modèles linguistiques, 40. https://doi.org/10.4000/ml.1400
- Pêcheux, M. (1981). Matérialités discursives. Presses Universitaires de Lille.
- Ringoot, R. (2010). Questionner le discours avec Michel Foucault. Mots. Les langages du politique, 94, 199–207. http://journals.openedition.org/mots/19887
- Schiffrin, D. (1994). Approaches to discourse. Oxford: Blackwell.
- Sinclair, J. M., & Coulthard, M. (1975). Towards an analysis of discourse. Oxford: Oxford University Press.

- Stubbs, M. (1983). Discourse analysis: The sociolinguistic analysis of natural language. Oxford: Basil Blackwell.
- Titscher, S., Meyer, M., Wodak, R., & Vetter, E. (2000). Methods of text and discourse analysis. SAGE Publications Ltd.
- Trappes-Lomax, H. (2004). Discourse analysis. In A. Davies & C. Elder (Eds.), The handbook of applied linguistics (pp. 133–164). Blackwell Publishing.
- Wedl, J. (2007). L'analyse de discours «à la Foucault» en Allemagne. Langage et société, 120(2), 35–53.
https://www.cairn.info/revue-langage-et-societe-2007-2-page-35.htm
- Widdowson, H. G. (1995). Discourse analysis: A critical view. Language and Literature, 4(3), 157–172.
- Willig, C. (1999). Applied discourse analysis: Social and psychological interventions. Buckingham, UK: Open University Press.
- Wilson, A. (2012). What is a text? Studies in History and Philosophy of Science, 43, 341–358.

المراجع الإلكترونية:

- Collins English Dictionary. (n.d.). Text. Retrieved from https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/text
- Collins English Dictionary. (n.d.). Discourse. Retrieved from https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/discourse
- Dictionnaire de Français Larousse. (n.d.). Texte. Retrieved from https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/texte/77624
- Dictionnaire de Français Larousse. (n.d.). Discours. Retrieved from https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/discours/25859
- Dictionnaire Français Définition. (n.d.). Retrieved from https://dictionnaire.reverso.net/francais/definition/text%C3%A9